مجلة البدر
جامعة بشار

مسرحية "جزيرة العبيد"
مشروع مصالحة وسلام

الدكتور محمد تحريشي
جامعة بشار

من المصادفة أن أقرّ في جريدة الخبر عن أمور تتقاطع، فمن التزام السعيد بوطاجين إلى الالتزام كان خيارا تاريخيا لعثمان بدري، إلى العرض المسرحي، كنت قرّت عن الالتزام من وجهات نظر مختلفة.

قدمت الجمعية الثقافية الموجة لمستغانم عرضا مسرحيا مميزا يوم الخميس 25/08/2005 في حدود الساعة العاشرة ليلا و استمر لمدة ساعة و نصف، و جاء هذا العمل نتيجة تظافر عدة جهود من مستغانم و سيدي بلعباس و تندوف.

مسرحية" جزيرة العبيد"نص مسرحي لماريفو ترجمه إلى العربية الشاعر عبد الله الهامل، وأخرجه بوجمعة الجيلالي، و وزعه عبد الحليم زريبيع و آخرون

يندرج العرض ضمن مسرح الحلقة حيث اختارت الفرقة فضاء المعهد الوطني للتكوين المهني بمستغانم و كم كان مناسبا لتقديم عرض في شكل حلقة مميزة تذكّرنا بتلك المظاهر الاحتفالية المسرحية التي كانت في الأسواق الأسبوعية.

و أما عن الديكور، فكان مناسبا لشاطئ جزيرة حيث تجري الأحداث، و جاء بسيطا يوحي بجو غرائبي عجيب يعتمد على وجود أشرعة بألوان داكنة و كأن الريح و الرياح توجهها في اتجاه الشاطئ، و زين الرّكح بحبال مشدودة، فحققت مع الأشرعة ثنائية ترمز إلى الحرية و العبودية ،الحركة و الإنعتاق في مقابل القيد و الثبات، و يتوسط كل تلك الأشرعة المعلقة على اليمين و على الشمال شراع أبيض كبير أوجد انسجاما و تناغما مع ألوان الأشرعة الداكنة اللون، مما أعطى الرّكح بعدا جماليا و انعكاسا طبيعيا للإضاءة، ووُظف أرضية لبداية الحدث المسرحي بجنوح باخرة إلى شاطئ الجزيرة، و كان أيضا امتدادا لألوان لباس العبيد المائل إلى البياض.

ووُظف في هذا الديكور مجسمات خشبية لجذوع أشجار غابية في شكل فني جذاب و مميز وكأن يد نحات مرت عليه.

لقد أمد هذا الديكور، المعتمد على البساطة و الخفة، العرض بخلفية مميزة تقوم على حسن التوظيف و الاستغلال و الواقعية في مراعاة للإمكانيات المادية المتاحة للعرض.

و أما عن العرض، فيبدأ بتقديم صور لجنوح سفينة إلى شاطئ جزيرة، يكتشف الركاب من أسياد و عبيد فيما بعد أنها جزيرة العبيد.

فيتم اللقاء بينهم و بين سكان هذه الجزيرة، و من ثم تنطلق الأحداث ليحاكم العبيد أسيادهم، فيعترف هؤلاء بالأفعال المنسوبة إليهم، و يقرون بأخطائهم و عيوبهم، و يتطهر كل الفريق من تلك الأحقاد والضغائن.

ابنى العرض على الثنائيات المتضادة و قام على صراع مفترض وجوده بين الأنا و الآخر بين السلبي و الإيجابي، الأسياد و العبيد الخير و الشر، الحاكم و المحكوم.

ووظفت الكوريغرافيا و الحوار و الوصف في هذا العرض الذي كشف عن تحول السلطة من الأسياد إلى العبيد للحد من عجرفة تلك الطبقة العفنة التي عليها أن تدرك مرارة ما كانت تقوم به من أعمال و أفعال تسيء إلى العبيد و الشيء بالشيء يذكّر، و كأن الفكرة تقترب من فكرة فيلم "قرد القردة" المشهور .

إن مسرحية "جزيرة العبيد" حوارية مميزة بين الخير و الشر، بين هو و هو، بين هو و هي، وبين هي وهي لتكشف عن الغل و الحقد الدفينين فتصل إلى مصالحة الذات مع الذات نفسها، و مصالحة الذات مع الذات الأخرى، و مصالحة الفكر مع الفكر الآخر و القبول بوجوده، و بذلك جاء العرض ليقرر السلام كما صرح بذلك أحد الممثلين "قررنا السلام" فالمرتب واحد و البحار واحد، و المصير واحد و لابد من العناق و القبل بعد المكاشفة عوض الاقتتال و الاغتيال و ممارسة السلطة بحد القوة والسيف فأمتع العرض الحضور الذي كانت غالبيته من الشباب.

و اعتمدت المسرحية على المفارقة في إضفاء جمالية خاصة، فقد تناولت موضوع السلطة والغريزة فاستنتجت أن السلطة تفسد الطباع أو كالحديث عن قوانين الجمهورية التي تسير مجتمع العبيد بينما الحديث عن وقائع بين الأسياد و العبيد عبر تحول السلطة بين الطرفين.

و من المعاني التي أكدتها المسرحية "الحظ"إذ تصرح إحدى الشخصيات"الحظ يصنع المعجزات "فهل الحظ هو الذي أوجد هذا المجتمع من العبيد، و هل هو الحظ نفسه الذي جعل السفينة ترسو على هذا الشاطىء؟ و هل هو الحظ نفسه الذي أدى إلى هذه المحاكمة، و الذي جعل الشخصيات يتصالح بعضها مع بعض، و لكن هل أن *"العبيد تسعى فضل ملوكها"* ثم هل إن التفصيل و التجزئة عاملان قابلان لتعرية الواقع و تجاوز الأحقاد؟

قُدمت المسرحية بلغة عربية فصحى مع ذكر بعض العبارات بنطق عامي، وأعتقد أن المسرحية لغة كانت فوق مستوى الممثلين اللهم الممثل القدير عبد الحليم زريبيع الذي كان متمكنا من الدور أداء و لغة و لم يقع فيما وقع فيه غيره من الممثلين، و ظهر الفرق شاسعا بينه و بينهم ، و هذا ما لاحظه أغلب الحاضرين، فكأنهم كانوا مبتدئين و كان هو المتمرس، و كانت أغلب الأخطاء اللغوية التي وقع فيها بعض الممثلين من سبيل رفع اسم إنّ المؤخر.

ثم إن التقيد بالنص المكتوب جعل العرض يقع في نوع من الرتابة و لولا حيوية بعض الممثلين لما استطاع أن يمركز الجمهور. و ربما لو اتجه المخرج إلى اقتباس الذكي مع بعض الإسقاطات على الواقع الجزائري لأوجد متعة أكبر من خلال ربطها بالضروري و النفعي، خاصة و أن الحديث في الجزائر هذه الأيام عن ميثاق المصالحة و السلم و كأنه ضرب عصفورين بحجر واحد.

و ربحت المسرحية مغامرة أخرى باختيارها الفصحى لتقديم العرض، و مع ذلك يبقى السؤال مطروحا، فما مدى واقعية العرض، و إلى أي حد يمكن أن يحقق تجاوبا مع الجمهور سواء أكان نوعيا أو عاما ؟

و حقق اللباس المختار للممثلين بحسب الأدوار المسندة إليهم قيمة جمالية لخطاب سيميائي يرمز إلى طبقة و أخرى بحسب نوعية اللباس، و أظهرت الشخصيات حرجا و عدم تكيف عندما تبادلت اللباس فيما بينها، فالأسياد ارتدوا مجبرين لباس العبيد، و لم يجد العبيد راحة في لباس أسيادهم، فأصر كل فريق على إرجاع اللباس الممنوح له و الاكتفاء بلباسه الذي تعود عليه.

إن ملء العبيد للحيز داخل الرّكح من خلال أدائهم لحركات جسدية أعطى العمل بعدا دلاليا، ولكن من موقع آخر فقد مثل هؤلاء العبيد سندا قويا دالا على الجبروت و الإتحاد و مقدرة على التخويف وإدخال الرعب في الآخر.

و كان يمكن للمخرج أو الموزع على حد سواء أن يمنحهم حضورا أكبر من خلال أداء كلامي، فهم لم يملكوا داخل العرض إلا صوتا واحدا و سوطا واحد هو شيخهم و قائدهم، هذه هي قوانين الجمهورية كما قال في أحد المشاهد.

و قدم العرض إسقاطات إيديولوجية من خلال تلك اللهجة الناقدة للسلطة و الحكم و كان لوقع كلمة "رفيق" الموظفة في العرض لمناداة الشخص الآخر أثر بليغ،و كأنها تريد أن تعلن عن حط إيديولوجي فهل الرفيق مازال موجودا، و إلى أي حد تكون هذه المناداة دالة على التساوي في الحقوق و في الواجبات.